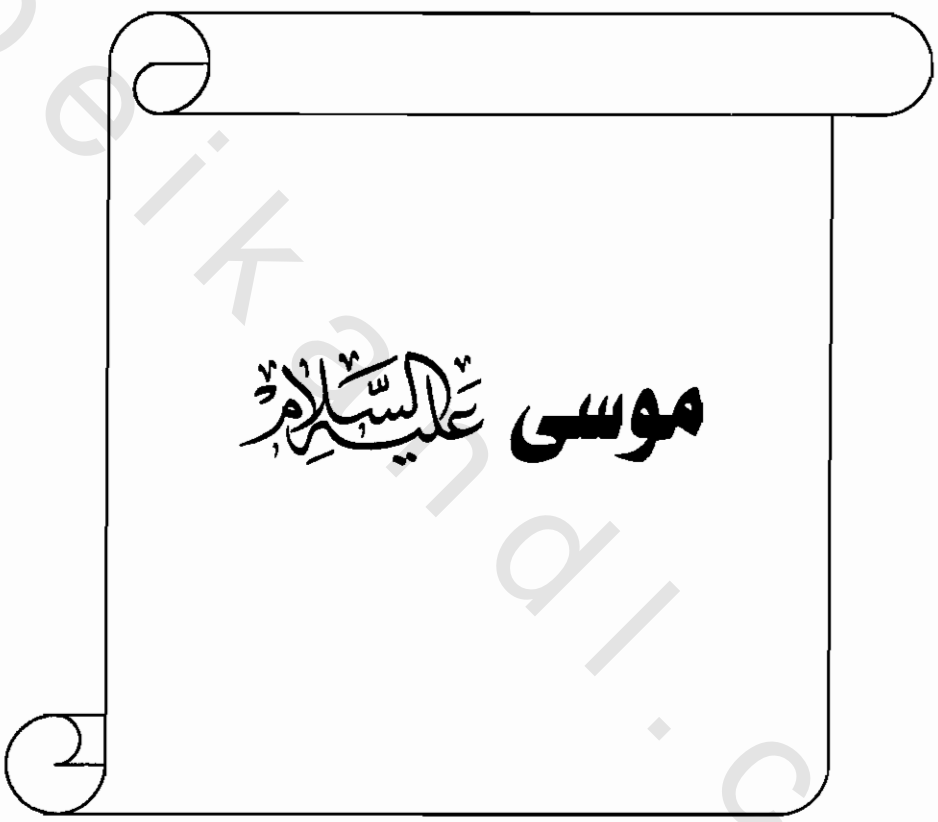

obeikandl.com

obeikandl.com

موسى عليه السلام

هو نبي الله موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهو عليه السلام ثالث أنبياء أولي العزم من الرسل بعد نوح وإبراهيم، وكان موسى عليه السلام من بني إسرائيل، يلقَّب بكليم الله.

وقد جاء بكتاب وشريعة سماوية، وكان يريد أن ينجي بني إسرائيل من محنتهم مع فرعون.

ولادتـه عليه السلام:

كان بنو إسرائيل يعيشون حياة المحنة، وبالرغم من كثرة عددهم إلا أن فرعون وكان اسمه (الوليد بن مصعب) حاكم مصر لم يقم لهم وزناً، لأنه كان من عبدة الأوثان، وبنو إسرائيل من سلالة الأنبياء، فكان يضيّق عليهم ويكلفهم الأعمال الشاقة، شأنهم شأن العبيد والرقيق.

وفي يوم من الأيام، رأى فرعون في نومه كأن ناراً قد أقبلت من ناحية الشام، حتى اشتعلت على بيوت مصر فأحرقتها، وأحرقت المصريين، وتركت بني إسرائيل.

فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين، فسألهم عن رؤياه، فقالوا: يولد في بني إسرائيل غلام يسلبك الملك، ويقلبك على سلطانك، ويخرجك أنت وقومك من أرضك، ويبدل دينك، وقد

أظلك زمانه الذي يولد فيه.

فأمر فرعون ببثّ العيون في كل مكان، ومن ذلك اليوم بأن يذبحوا كل مولود ذكر يولد في بني إسرائيل، وأن يُبْقُوا البنات.

ويصف الله سبحانه وتعالى جبروت وفساد فرعون فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤].

وحينئذٍ تراكمت الهموم والأحزان على بني إسرائيل من أجل ما كان يصيبهم من ظلم وطغيان، فأسرع الموت إلى شيوخهم.

فدخل جماعة من المقربين إلى فرعون عليه، وقالوا: إن الموت قد وقع في مشايخ بني إسرائيل، وأنت تميت صغارهم، يوشك أن يقع عبء العمل علينا.

فأمر فرعون بذبح الولدان سنة وتركهم سنة، فولد هارون في السنة التي لا يذبح فيها أحد، فترك، وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها، وقد حزنت أم موسى أشد الحزن لما قاربت وضع وليدها، فوضعته خفية دون علم أحد من أتباع فرعون.

وكان الله معه بعونه ورحمته، فألهمها أن ترضعه، وهداها إلى أن تتخذ له صندوقاً تضعه فيه، وتلقي به في النيل، فقال لها سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

موسى عليه السلام في بيت فرعون:

دعت أم موسى نجاراً من بني إسرائيل، فجعل لها تابوتاً،

ووضعت موسى داخله، وألقته في اليم، فلمَّا توارى عنها ندمت واشتد بها الندم، وتملكتها وساوس الشيطان، وقالت: لو ذبح عندي كان أحب إليَّ من أن ألقيه بيدي إلى حيتان البحر ودوابه.

ثم عصمها الله بعد ذلك من هذه الوساوس، واطمأنت نفسها، وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى، حتى أدخله بين الأشجار عند دار فرعون، في روضة هي مستقى جواري فرعون.

فخرجت جواري فرعون يغتسلن ويستقين، فوجدن التابوت، فأخذنه وظنَّ أن فيه مالاً، فحملنه على حالته حتى أدخلنه على آسية امرأة فرعون، فلمَّا فتحته رأت فيه الغلام، فألقى الله تعالى عليها محبة منه، فرحمته وأحبته حبًّا شديداً.

فلمَّا سمع فرعون بهذا الولد أمر بقتله، فتوسلت إليه زوجه آسية أن يترك هذا الغلام لتقر به أعينهما، وقالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: ٩].

ولم تزل آسية ترجو فرعون وتلح عليه في الرجاء حتى استجاب لها ووهبه إياها، فعاش في كنف فرعون وزوجه[١].

رجوع موسى عليه السلام إلى حضن أمه:

طلبت أم موسى من ابنتها مريم أن تتبع أثر موسى وتسمع أخباره من بعيد وهم لا يشعرون.

ورأت أخت موسى المراضع وهن يحاولن إرضاعه فلا يستطيعون

---

(١) «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير. (بتصرف).

سبيلاً إلى ذلك.

فتقدمت إليهن مشفقة عليهن ناصحة لهن، ودلَّتهن على أمه فطلبوها فحضرت وهم لا يعلمون من أمرها شيئاً.

فلمَّا قرَّبته من ثديها أقبل على الرضاع بنفسٍ راضية.

ففرحت آسية واطمأنت، وطلبت من المرضعة أن تقيم معها في قصر الملك، ولكنها أصرت على أخذه معها في بيتها، واضطرت آسية أن توافق في النهاية.

ورجع الطفل إلى أمه وإخوته ينال من عطفهم وبرّهم بعيداً عن الخوف والفزع، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص: ١٢، ١٣].

وبعد أن أتمت أم موسى رضاعته، أتت به إلى بيت فرعون، فعاش بين مظاهر الترف ومباهج الملك والسلطان.

موسى عليه السلام ينصر أحد الإسرائيليين:

شبَّ موسى عليه السلام في بيت فرعون، وكان قوي الحجم، وافر القوة، وفي ذات يوم دخل موسى مدينة مصر على حين غفلةٍ من أهلها، حيث كان النهار قد انتصف، وأُغلقت الأسواق من شدة الحر.

وبينما هو يمشي في ناحية المدينة إذ وجد رجلين يقتتلان ويتصارعان، أحدهما إسرائيلي، والآخر قبطي من قصر فرعون حاكم مصر، فلمَّا رأى الإسرائيلي موسى عليه السلام طلب منه أن يعينهُ على

القبطي، فتدخَّل موسى عليه السلام لينقذ الإسرائيلي من يد القبطي، فضربه بيده ضربة قوية فمات في الحال.

وقد حزن موسى بعد ذلك وأدرك الخطأ الذي وقع فيه، واستعاذ بالله من عمل ووساوس الشيطان، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦].

أصبح موسى عليه السلام بمدينة مصر خائفاً من فرعون وجنوده أن يعلموا أن هذا القتيل الذي قُتل بالأمس إنما قتله موسى في نُصرة رجل من بني إسرائيل.

وبينما كان موسى عليه السلام يساوره الخوف، بَصُرَ بذلك الإسرائيلي الذي نصره بالأمس يستنصره اليوم على قبطي آخر، ويقول: انصرني يا موسى.

عندئذٍ ظهر الغضب في وجه موسى، وعنَّفَ الإسرائيلي على كثرة شرِّه ومخاصمته، وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: ١٨].

وأقبل موسى نحوهما، فلمَّا لمح القبطي موسى وقد أراد أن يبطش به، قال له والخوف يملأ قلبه: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: ١٩].

ورُفع الخبر إلى فرعون، فعرف أنَّ قاتل ذلك الرجل هو موسى، فأرسل في طلبه، إلا أنَّ رجلاً ناصحاً سَبَقَ جنود فرعون، وسعى إلى موسى وأخبره إشفاقاً عليه من أن يناله فرعون أو جنوده بسوء، ونصحه بالخروج من مصر.

وبيَّن لنا الله سبحانه وتعالى في كتاب العزيز ما فعله هذا الرجل، فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٠، ٢١][1].

موسى عليه السلام في مدين:

خرج موسى عليه السلام من مصر متوجهاً نحو مدين وحيداً، ولم يتزود لهذا السفر الطويل، وليس معه إلا الرحمة يرجوها من ربه قائلاً: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢].

وقد لقي موسى عليه السلام في هذه الرحلة كثيراً من الأهوال والمتاعب، وأنه لم يكن له طعام سوى ورق الشجر، وكان حافياً؛ فسقط جلد قدميه من شدة الحر.

ولمَّا ورد المكان الذي يستقي منه أهل مدين، جلس ليستريح من وعثاء السفر، فوجد الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم، ولكنه وجد من دونهم فتاتين تهشان غنمهما لئلا تقترب من الماء.

عندئذٍ تقدم موسى عليه السلام من الفتاتين وسألهما: ما خطبُكُما؟ وما شأنكما؟ ولماذا تدفعان أغنامكما وتحبسانها عن الماء؟

قالتا: لا نستطيع أن نزاحم الرجال والرّعاة، ولهذا السبب فإننا نتأخر عن السَّقي.

قال موسى: ولِمَ ترعيان؟!

---

(١) «روح المعاني في تفسير القرآن»، الألوسي. (بتصرف).

قالتا: إن أبانا شيخ كبير لا يستطيع أن يأتي هو ليرعى ويسقي لضعفه، ولابد لنا من الانتظار حتى ينتهي هذا الزحام.

فقال لهما: سأسقي لكما إن أحببتما.

ونظر موسى عليه السلام فوجد أنَّ الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة ثقيلة لا يقدرُ على رفعها إلاَّ بضعة رجال، فرفع موسى عليه السلام تلك الصخرة ثم سقى لهما غنمهما، وردَّ الصخرة كما كانت، وبعد أن سقى لهما، آوى إلى ظلِّ شجرة قريبة من بئر الماء، وكان يدعو الله سبحانه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤].

ثم ذهب موسى عليه السلام يجلسُ تحت ظلِّ الشجرة، بينما عادت الفتاتان إلى أبيهما الشيخ، فعجب لتبكيرهما بالعودة على غير العادة التي ألفها منهما، وسألهما عن سبب هذا التبكير، فأخبرتاه بأمر الرجل الذي أكرمهما وسقى لهما.

وقالت له ابنته الصغرى، وكانت اسمها (صفورا): يبدو يا أبي أنَّ هذا الرجل الكريم آتٍ من مكان بعيد.

قال الأب لها: يا ابنتي، اذهبي إليه وادعيه وقولي له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

جاءت صفورا إلى موسى وهي مستحيية في مشيتها، وقالت له في أدب وحياء: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[القصص: ٢٥].

استجاب موسى لدعوة الرجل الصالح، ومن ثم صحب صفورا إلى بيت أبيها، وقال لها: يا أمة الله كوني ورائي، ودليني على الطريق يميناً أو يساراً.

وحينما قدم موسى عليه السلام على أبيها، سلَّم عليه وأخبره بنسبه، وحكى له ما جرى في مصر، وأخبره بما وقع له من فرعون وملئه.

فقال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: ٢٥].

زواج موسى عليه السلام:

وجد موسى عليه السلام كل الراحة والسعادة في منزل الشيخ الكريم، شهد فهدأت نفسه، واطمأن قلبه.

وكان موسى عليه السلام صادقاً أميناً، فأعجب به الشيخ وبنتاه، واتجهت نفوسهم إلى الإبقاء عليه في منزلهم فترة طويلة، وتحدثت إحدى البنتين بهذه الرغبة إلى أبيها، فقالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

وحينئذٍ سألها أبوها: وماذا تعرفين عن قوته وأمانته؟

فأخذت تحدث أباها كيف استطاع أن يسقي لها ولأختها، وكيف تعفف أن يمشي وراءها حتى لا يرى شيئاً من جسمها إذا عصفت الريح، فمشى أمامها، وطلب إليها أن تصف له الطريق.

تعلق قلب الشيخ الكبير بموسى عليه السلام، وأراد أن يزوجه إحدى ابنتيه، فقال له: يا موسى إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين، وفي نظير ذلك تقوم بمعاونتي على أعباء الحياة ثمانية أعوام، فإن أتممتها عشراً كان ذلك برًّا منك وفضلاً وكرماً، وسأكون لك إن شاء الله من الأوفياء المخلصين.

ويصور لنا القرآن الكريم ذلك، فيقول على لسان الشيخ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ

عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٧، ٢٨].

قال رسول الله ﷺ: «**سألت جبريل: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أكملُها وأتمُّهما**»(١).

قضاء موسى عليه السلام الأجل وخروجه من أرض مدين:

تزوج موسى عليه السلام من صنورا، ووفَّى للشيخ بما عاهده عليه، ومكث يعمل عنده، ووفَّى بأوفى الأجلين، وهو عشر سنين.

أمضى موسى عليه السلام عشر أعوام يرعى الغنم ويرعى الشيخ، ثم عزم بعد ذلك الخروج من مدين بعد أن أتم الأجل.

قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم**»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم، كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة**»(٢).

خرج موسى عليه السلام مع أهله متجهين إلى مصر، وبينما كان سائراً ومعه أهله ضلَّ الطريق.

ولكن هداية الله كانت تلاحقه، فتضيء له السبيل، ذلك بأنه لم يمكث إلا قليلاً حتى أبصر من الجهة التي تلي جبل الطور ناراً، وكان البرد شديداً، فحط رحاله، وقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[القصص: ٢٩].

---

(١) «تاريخ الأمم والملوك»، الطبري. (بتصرف).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/٤٠٨)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة»: (١٨٨٠).

بدء نبوّة موسى عليه السلام :

انطلق موسى مسرعاً يتوكأ على عصاه باتجاه النَّار التي تراءت له على بُعد، فلما وصل إلى النار وجد الضياء في شجرة، ولم يجد أثراً لاشتعال النار، فرجع عنها وأوجس في نفسه خيفة.

ثم سمع النداء الذي آنسه وأذهب حيرته ووحشته، حيث كلَّمه ربه قائلاً سبحانه: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه: ١٢].

ازدادت دهشة موسى عليه السلام فأراد الله أن يطمئن قلبه، فقال له سبحانه: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه: ١٤ ـ ١٦].

فلمَّا سمع موسى عليه السلام كلام الله عز وجل؛ هدأت نفسه، واستأنس بالنداء.

ثم سأله الله سبحانه وتعالى ـ وهو أعلم ـ: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه: ١٧].

فأجابه موسى: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه: ١٨].

فقال له سبحانه: ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾، فألقاها امتثالاً لأمر ربه.

لمَّا رمى موسى العصا تحوَّلت العصا التي يتوكأ عليها إلى ثعبان مبين، عندئذٍ احتل الخوف قلبه، ولكن جاءه النداء من الله سبحانه وتعالى مطمئناً: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النمل: ١٠].

ثم توجه ربه بمعجزة أخرى يزداد بها يقيناً واطمئناناً بأن الله قد اختاره نبياً ورسولاً.

وذلك أن الله أمره قائلاً: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢].

وضع موسى عليه السلام يده في جيبه وأخرجها، فإذا هي بيضاء كالبدر في وسط السماء.

وفي تلك اللحظة جاء نداء من العلي الحكيم لموسى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢].

عرف موسى عليه السلام أنه أُمر بالرسالة من رب العالمين لفرعون وملئه، وما كان يقدر مدى الخطر الذي سيصيبه حينما يلتقي مع فرعون في كبريائه وسلطانه، وجبروته وطغيانه، فتوجَّه إلى الله سبحانه بهذا الرجاء وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤].

وهنا استجاب الله دعاءه ورجاءه، فقال الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥][1].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب رعي الغنم على قراريط.

دعوة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون:

أعدَّ الله موسى وهارون لرسالته وأمرهما أن يذهبا إلى فرعون، وقال لهما: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥، ١٦].

انطلقا موسى وهارون إلى باب فرعون ولم يؤذن لهما سنة، حتى قال البواب لفرعون: إن هنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال له: ائذن له، لعلنا نضحك منه ونسخر به.

فلمَّا دخلا عليه عرف موسى، فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨].

فردَّ عليه موسى عليه السلام قائلاً: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء: ٢٠ ـ ٢١].

ثم قال له موسى: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥].

استغرب فرعون دعوة موسى له بعبادة الله وحده، فشرع يجادله في ربوبية الله ويسأله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٣].

فقال موسى لفرعون وحاشيته: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٤].

فالتفت فرعون إلى من حوله من أتباعه وأعوانه مظهراً العجب والسخرية قائلاً: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٥].

وتابع موسى عليه السلام كلامه قائلاً: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦].

فردَّ عليه فرعون وقال لموسى وهو ينظر إلى أعوانه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧].

فاستمرَّ موسى ناصحاً لفرعون ومن معه فقال لهم: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٨].

ولمَّا رأى موسى وهارون عدم استجابة فرعون لهما حذّراه من عذاب الله فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ٤٨].

قال فرعون في سخرية واستهزاء: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٤٩].

قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠].

قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه: ٥١].

قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه: ٥٢ ـ ٥٣].

عصا موسى عليه السلام:

اشتدَّ الجدل بين موسى عليه السلام وفرعون، فثار فرعون واضطرب قلبه فلم يجد لنفسه حيلة ومخرجاً مما هو فيه إلا التهديد والوعيد، فقال لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩].

فأجابه موسى عليه السلام في رويّة واطمئنان: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء: ٣٠].

فقال فرعون وقد أخذه الكبرياء والعجب: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء: ٣١].

فألقى موسى عصاه فإذا هي حيّة عظيمة مسرعة إلى فرعون، ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠].

فلمَّا رآها فرعون قاصدة إليه اشتدَّ به الفزع، وملأ الرعب قلبه وانقلب من فوق سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل، ثم أخرج يده من جيبه، فإذا هي بيضاء من غير سوء، ثم أعادها فعادت كما كانت.

وهنا عجب فرعون، واستشار الملأ من حوله ماذا يصنع؟

فأجابوه بما طمأنه وهدأ من روعه وقالوا له: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه: ٦٣] أي: يضيع ما أنتم فيه من ملك ونعيم وسلطان.

ومع هذا كله ظلَّ فرعون في غيه وضلاله ونظر إلى الملأ من قومه وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

ثم قال لوزيره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

موسى عليه السلام والسحرة:

رأى فرعون والملأ من قومه ما فعله موسى عليه السلام فظنوه سحراً وبهتاناً وحسبوا أنهم لو تجمعوا لمقاومة هذا السحر بسحر مثله لانتهت حجته، وسقط برهانه.

فانتهى الرأي بهم إلى فرعون أن يمهل موسى وأخاه، ويبعث في طلب السحرة من آفاق مصر ليأتوا بمثل ما أتى به موسى، فتنهار معجزته ويتلاشى ما ادعاه من النبوة.

أرسل فرعون أعوانه في أنحاء مصر ليأتوه بالسحرة، فجاءوا بكثيرين منهم، فطلب السحرة من فرعون الأجر الجزيل إذا تفوّقوا على موسى في سحره فقبل فرعون ذلك ووعد بجعلهم من المقربين.

وأقبل السحرة في اليوم الموعود، وكانوا يثقون بأنفسهم ثقة لا تحدها حدود، وقالوا لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: ١١٣].

فقال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٤].

ومنذ سمع السحرة وعد فرعون توجهوا إلى موسى وقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف: ١١٥].

فأصرَّ موسى عليه السلام أن يلقوا سحرهم أولاً.

فألقوا ما معهم من عصي وحبال، فامتلأ المكان حيّات وثعابين وخُيِّل إلى موسى والرائين أنها تسعى.

فخاف الناس من هذا المشهد، ووقع في قلوبهم الخوف والرعب.

عندئذٍ اعتقد فرعون وجنوده وكبار أعوانه أن السحرة قد نجحوا فيما صنعوا، وأن موسى لن يستطيع أن يقاوم هذا السحر العظيم.

ووصف الله سبحانه وتعالى حال موسى حين رأى هذا السحر فقال سبحانه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٨].

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يلقي عصاه، فألقاها فكانت المعجزة الكبرى، وإذا هي ثعبان ضخم يبتلع كل ما يصنعون.

هنا علم السحرة أن السحر لا يفعل مثل ذلك؛ فخروا ساجدين لله تعالى، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

فاشتد غضب فرعون، وقال لهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾ [طه: ٧١].

ولكن السحرة لم يخافوا من تهديد فرعون، فلم يزدهم هذا التهديد والوعيد إلا إيماناً على إيمانهم، وقالوا لفرعون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣﴾ [طه: ٧٣].

فسبحان الله، ما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود[١].

---

(١) «التفسير الكبير»، فخر الدين الرازي، «تفسير ابن كثير»، ابن كثير (بتصرف).

إيذاء موسى وبني إسرائيل:

رأى فرعون المعجزات التي أتى بها موسى، فتمادى في كفره وأصرَّ على عناده؛ ولامه الأشراف من قومه على ترك موسى وأتباعه يعبدون الله وحده ويتركون عبادته هو وآلهته، فطمأنهم فرعون قائلاً: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: ٢٦].

فوافقه كبار قومه على ذلك، فطلبوا منه أن ينزل بموسى ومن معه ألوان العذاب حتى يكونوا عبرة للناس.

هدد فرعون وتوعد، وأنذر موسى وقومه بقتل الأبناء واستحياء النساء إذا ظلوا على طريقتهم ولم يرجعوا عن ملتهم.

حينئذٍ طلب موسى من قومه أن يلجأوا إلى الله الذي يكشف السوء، فقال لهم: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فأكد لهم موسى أن مع العسر يسراً، وأن بعد الضيق فرجاً ومخرجاً، وأن الله بقوته وجبروته لن يترك هذا الظلم يدوم، ووعدهم بالنصر القريب.

مؤمن آل فرعون:

جاء رجل من آل فرعون مؤمناً، وكان يكتم إيمانه؛ خوفاً من فرعون وبطشه، فتصدى لفرعون وقومه منذراً ومحذراً وناصحاً، فقال

لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨].

ثم قال لهم: ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم من قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، لقد انتقم الله منهم على طغيانهم وظلمهم، فما لكم تجادلون في الحق بعد أن جاءكم.

تابع هذا المؤمن دعوتهم إلى سبيل الحق والرشاد فنصحهم بعدم الاغترار بهذه الدنيا الفانية، والعمل للآخرة دار البقاء.

ثم لامهم هذا المؤمن على دعوتهم له إلى الكفر بينما هو يدعوهم إلى الإيمان والنجاة من النار.

ثم أخبرهم بأنه سيأتي وقت يذكرون فيه نصحه إياهم وأنه يفوض أمره إلى الله.

ولمّا انتهى هذا المؤمن من نصحه، وأظهر إيمانه، قصدوا قتله، فهرب منهم، ونجّاه الله من مكرهم، وحلَّ عذاب الله بفرعون وقومه.

استخفاف فرعون بموسى عليه السلام:

نصح موسى عليه السلام لفرعون وأخلص في نصحه، فلم يغيّر من نفس فرعون، ولم يخفف من غروره وكبريائه، بل زاده عناداً وطغياناً، استمر فرعون في غيه وضلاله، وأخذته عزة الملك، فجمع قومه ونادى فيهم قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٢].

استهدف فرعون بكلامه الباطل عقول الناس، وانقادوا إليه لأنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله، وبيّن لنا هذا الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

آيات الله على فرعون وقومه:

لم تنفع فرعون وقومه الموعظة الحسنة من موسى عليه السلام، بل ازدادوا علوًّا في الأرض وطغياناً وتعذيباً للمؤمنين.

عندئذٍ دعا موسى ربه قائلاً: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۙ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس: ٨٨].

استجاب الله سبحانه دعاء موسى، فقال تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس: ٨٩].

هنا أمر الله سبحانه وتعالى موسى بأن يعلنهم بما ينتظرهم من متاعب وأهوال إن ظلوا على كفرهم وغيّهم.

وأخذت النذر تتوالى مؤذنة بغضب الله عليهم، فيطلبون من موسى أن يسأل ربّه كشف الضر عنهم.

فإذا سأل ربه واستجاب له رجعوا إلى ما كانوا فيه من الغي والضلال، وهكذا ظلّوا في كفرهم حتى بطش الله بهم بطشته الكبرى، وأخذهم بظلمهم، وحاق بهم عذاب الدنيا والآخرة.

أرسل الله سبحانه وتعالى إلى فرعون وقومه تسع آيات، قال

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

أما النذر والآيات التي سبقت إغراق فرعون وقومه فهي: الجدب ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

فأما الجدب فهو القحط والجوع الذي ترتب على نقص النيل وتقصيره في إرواء الأرض، ونتج عن ذلك نقص المال وهلاك الأنفس والثمرات.

وأما الطوفان فقد كان بإغراق النيل لأرضهم، أو نزول المطر الكثير الذي يضر الزرع ويتلفه، ويعوق الناس عن السير إلى العمل والمشي في مناكب الأرض.

وأما الجراد فهو آفة مدمرة مهلكة تطغى على أرزاق الناس وتنازعهم أقواتهم.

والقمل انتشر في أجسامهم فنغّص عليهم معيشتهم.

وأما الضفادع فقد كانت تسقط في طعامهم وفراشهم وبين ملابسهم.

والدم كذلك كان نذيراً وآية من الله، لأن الحياة قد استحالت إلى دماء وفي ذلك بلاء أي بلاء.

تتابعت آيات الله على آل فرعون، فأرسل عليهم الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، فكانوا لا يقدرون على أن يخرجوا، ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً.

وحينئذٍ قال فرعون والملأ من قومه لموسى عليه السلام: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء.

ثم أرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر، بل كان يأكل مسامير الأبواب من الحديد ونازعهم في أقواتهم.

فقالوا مثل ما قالوا.

فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء.

فأرسل عليهم القمل، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم، فلمَّا جهدهم قالوا له مثل ما كانوا يقولون.

فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

فأرسل عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع.

فلمَّا جهدهم ذلك قالوا مثل ما قالوا.

فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

فأرسل عليهم الدم، حتى صارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً.

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[الزخرف: ٤٧ ـ ٥٠](١).

هلاك فرعون وجنوده:

انطلق موسى عليه السلام بقومه بني إسرائيل من أرض مصر ذاهباً إلى أرض فلسطين بأمر من الله سبحانه وتعالى، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء: ٥٢].

وقد فزع فرعون لخروج موسى وقومه، وظنّ أنهم خرجوا ليجمعوا شملهم ويستكملوا قوتهم ليعودوا إلى مهاجمته والقضاء عليه.

فأرسل جنده وأعوانه إلى مدائن مملكته يجمعون له الأشدَّاء من قومه للحاق بموسى ومن معه.

خرج فرعون وجنوده يتبعون موسى وبني إسرائيل وتركوا وراءهم ما كانوا يتمتعون به من بساتين وعيون الماء وكنوز من الذهب، ومقام كريم من القصور العالية.

وكان بنو إسرائيل قد وصلوا ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، وأدركهم فرعون عندما طلعت الشمس، فظنوا أنهم هالكون، وقالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١].

ولكن موسى عليه السلام أجابهم بما ملأ قلوبهم سكينة وطمأنينة، فقال لهم: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢].

---

(١) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

ثم تقدم الصفوف ونظر إلى البحر وهو متلاطم بأمواجه، وكان معه أخوه هارون، ومعهما (يوشع بن نون)، وهو يومئذٍ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم، وكان مع هؤلاء جميعاً مؤمن آل فرعون.

نظر موسى عليه السلام إلى البحر وقال: هاهنا أمرت أن أسير.

فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

ثم أمر الله سبحانه موسى عليه السلام بالنزول في هذا الطريق ومعه قومه من بني إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين، وقد وضحت لهم آية الله وقدرته، فلما اجتاز موسى ومن معه البحر، كان فرعون حينئذٍ قد وصل هو وجنوده إلى البحر، فرأوا بأعينهم هذا المنظر الهائل الذي لم يروه من قبل.

وظنَّ فرعون وجنوده أن هذه الطرق اليابسة التي مهدت في جوف البحر ستظل على حالها إلى أن يتم عبورهم.

فنزلوا إلى البحر من هذه الطرق غافلين عما أعدَّه الله لهم.

حتى إذا تم نزولهم جاء أمر الله.

فانطبق البحر عليهم، ودهمتهم أمواجه الصاخبة، وحق عليهم القول، فكانوا من المغرقين.

وحينئذٍ صاح فرعون يلتمس النجاة من الهول الذي أحاط به، قائلاً: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠].

فأجابه الحق سبحانه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ

﴿ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩١ - ٩٢].

هكذا كانت عاقبة آل فرعون في الدنيا إغراقهم في البحر، أما في الآخرة فأعدَّ الله لهم عذاباً أليماً بما كانوا يفسقون.

قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦][1].

نعم الله على بني إسرائيل:

تابع بنو إسرائيل مسيرهم وجاءوا إلى الشاطئ الشرقي فلم يجدوا ماءً لشربهم ولا مساكن يأوون إليها، ولا شجراً يلتمسون تحته الظل شكو إلى موسى عليه السلام ما يلقون من عناء.

فدعا موسى ربه، فساق إليهم الغمام يظلهم ويقيهم قسوة الحر، وحينما تعرض زادهم للنفاد، واشتدَّ بهم الجوع حتى أوشكوا على الهلاك، أرسل الله عليهم الرياح تحمل لهم رزقاً حسناً وطعاماً شهيًّا، هو المن والسلوى (المن مادة تلصق بخشب بعض الأشجار وفيها حلاوة تشبه حلاوة العسل، وهي مع ذلك لينة سهلة الهضم، والسلوى طائر السماني كان يغطي الأرض فيأخذ منه كل إنسان حاجته).

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ﴾ [الأعراف: ٦٠].

---

(١) «تاريخ الأنبياء»، محمد الطيب النجار. (بتصرف).

وحيثما أجهدهم العطش ولم يجدوا ماء لشربهم، ولا سقيا لدوابهم؛ شكوا إلى موسى متألمين لما أصابهم، فاستسقى موسى ربه، فقال سبحانه وتعالى له: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

ومع كل هذه النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل لم يشكروا الله عليها ولم يرعوها حق رعايتها، بل جحدوا بمن أولاهم هذه النعم، وقالوا لنبيهم موسى حينما مروا على أناس يعكفون على أصنام لهم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ٨٣١].

عميت قلوبهم عن تلك المعجزات التي سخرها الله لهم، ولذا أجابهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

لقاء موسى عليه السلام بربه ونزول التوراة:

أخبر موسى عليه السلام بني إسرائيل وهم بمصر أن الله سيهلك فرعون وأنه سينزل عليهم كتاباً من عنده فيه الأوامر والنواهي التي ينبغي أن يسيروا عليها.

فلمَّا أهلك الله فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب.

أنزل الله التوراة على موسى في ألواح مخصوصة، وكان عددها عشرة ألواح، وقد كتبت بيد القدرة الإلهية، وفيها موعظة وتفصيل لكل شيء.

وقد أوحى الله موسى أن يصعد الجبل وحده ويعكف ثلاثين ليلة

حتى يزداد صفاء نفسه ويكمل استعداده لتلقي الرسالة، ثم أتمها الله بعشر ليال، فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وبعد تمام الأربعين كلم موسى ربه فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولكن لم يشأ الله سبحانه ذلك؛ ولذا قال الله عز وجل: ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[الأعراف:١٤٣] مغشيًا عليه؛ وذلك لما هاله مما أصاب الجبل من زلزال عنيف.

وبعد أن أفاق موسى عليه السلام من غشيته استغفر وأناب، وقال: ﴿ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ثم كلم الله موسى عليه السلام دون واسطة الوحي، وقال له سبحانه: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقد أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بأن يأخذ الألواح بقوة وإيمان متين، وأن يأمر قومه أن يعملوا بما جاء فيها من الهدى والحق، وأن يسيروا على أحسن ما جاء فيها، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وكان من أهم الوصايا التي تضمنتها تلك الألواح هي تلك الوصايا

العشر التالية:

قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣][1].

عبادة بني إسرائيل للعجل:

كانت عبادة العجل من العبادات الفاسدة التي كانت موجودة لدى المصريين، وهي نوع من عبادة البقر التي لا تزال موجودة إلى الآن في الهند، ولا شك أن بني إسرائيل قد عاشوا فترة طويلة في أرض مصر قبل فرارهم من فرعون فرأوا تلك العبادة.

لمَّا ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ترك قومه لأخيه هارون رقيباً عليهم ووكيلاً له في شئونهم، وقال له: ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقد أخبر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن غيبته عنهم لن تطول أكثر

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

من ثلاثين يوماً، فلمّا أمره الله سبحانه وتعالى أن يتمهم أربعين يوماً، وطالت غيبته عن قومه استبطؤوه وقالوا: إن موسى أخلفنا وعده.

فعندئذٍ انتهز موسى السامري وكان رجلاً ضالاً، وأخذ من بني إسرائيل بعض حليهم التي كان نساؤهم قد جلبنها من مصر، وألقاها في النار، وسبك منها عجلاً، وصاغه بطريقة خاصة تجعل الريح إذا دخلته تعطي أصواتاً من فمه كصوت البقر، ثم أمرهم السامري بعبادته، فلمّا كلم موسى ربه أخبره سبحانه أن قومه فتنهم السامري عن دينهم وأضلّهم.

فعاد موسى عليه السلام وهو أشد حالات الغضب والحزن وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ [طه: ٨٦].

أجاب القوم موسى عليه السلام: لم نخلف وعدنا إليك باختيارنا ورغبتنا ولكن أضلنا السامري، وقال لنا: إن ما لدينا من ذهب أخذناه من المصريين قد أغضب ربنا وما هو إلا أوزار نحملها تؤخر عودتك إلينا، والرأي أن نقذفها في النار ليرضى ربنا وترجع إلينا. فصدقناه وقذفنا بالحليّ في النار.

وكذلك فعل السامري، قذف ما معه من حليّ وأخرج لنا من هذه الحليّ تمثالاً لعجل.

وقال هو وأتباعه: هذا إلهكم الذي ينبغي أن تعبدوه، وهو إله موسى الذي غفل عنه وذهب بطلبه في جبل الطور.

ولقد تصدى لهم هارون من قبل مجيء موسى وأفهمهم أنهم فُتنوا

وأن إلههم الحق هو الله الرحمن دون سواه، فلم يفلح وأصروا على عبادته حتى يرجع إليهم موسى. وبيّن لنا الله سبحانه مجادلة هارون عليه السلام لقومه فقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[طه: ٩٠، ٩١].

غضب موسى عليه السلام أشد الغضب من قومه وألقى الألواح التي أنزلها الله إليه، ثم التفت إلى أخيه هارون وجره من شعر رأسه ولحيته وأخذ يؤنّبه على هذا التفريط الذي ترتب عليه هذا الكفر والضلال، وقال له: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

فقال له هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤].

بعد ذلك ندم بنو إسرائيل على زلتهم، واستغفروا ربهم، فأوحى الله سبحانه لموسى عليه السلام أن توبتهم تكون بقتل أنفسهم، فذهب موسى عليه السلام وبلّغهم رسالة ربه فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤][1].

اختيار موسى عليه السلام سبعين رجلاً:

اختار موسى عليه السلام من قومه سبعين رجلاً من أخيارهم، وقال لهم: انطلقوا معي إلى الله فتوبوا مما صنعتم وصوموا وتطهَّروا، وخرج

---

(١) «قصص الأنبياء»، عبدالوهاب النجار» (بتصرف).

بهم إلى طور سيناء للميقات الذي وقَّته الله له.

فقالوا: إنَّا نريد أن نسمع كلام ربّنا.

فقال: أفعلُ.

فلمّا دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشّى الجبل كلّه ودخل فيه موسى.

وقال لقومه: ادنوا، فدنوا حتى دخلوا في الغمام، فوقعوا سجوداً.

فسمعوا الله عز وجل وهو يكلم موسى عليه السلام يأمره وينهاه، فلمّا فرغ انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم.

فقالوا لموسى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة:٥٥].

فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعاً.

فقام موسى عليه السلام يناشد الله تعالى ويدعوه ويقول: يا رب اخترت أخيار بني إسرائيل، وأعود إليهم وليسوا معي فلا يصدّقونني.

ولم يزل يتضرع حتى رد الله إليهم أرواحهم، فعاشوا رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦][1].

دخول الأرض المقدسة:

أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يذهب ببني إسرائيل إلى

---

(١) «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير، «تاريخ الطبري»، الطبري. (بتصرف).

الأرض المقدسة فلسطين للإقامة بها.

فطلب من قومه أن يتوجهوا إلى بيت المقدس لإنقاذه من الكنعانيين الآثمين الذين طغوا في الأرض وأكثروا فيها الفساد، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١]، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: ٢٢].

هنا قام رجلان من الذين أنعم الله عليهما وقالا لقومهما ناصحين: ادخلوا على القوم في عقر دارهم من باب المدينة فيدخل الذعر قلوبهم فتنتصروا عليهم، وتوكلوا على الله.

فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

عندئذٍ شكا موسى عليه السلام لله سبحانه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة: ٢٥].

فحرم الله سبحانه وتعالى عليهم دخول الأرض المقدسة جزاءً وفاقاً على ما بدا منهم، وكتب عليهم التيه أربعين سنة حتى انقرض هذا الجيل الذليل، وجاء منهم جيل جديد تربَّى في البادية، وألف فيها العزة والكرامة، ليقوم بواجبه في الجهاد ونشر الدين والقضاء على الفساد.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦].

بنو إسرائيل والبقرة:

كان رجل من بني إسرائيل عقيماً، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله، ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم، حتى تسلحوا، وركب بعضهم على بعض، وقاموا ليتقاتلوا، فقال ذوو الرأي منهم: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟! فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له وطلبوا منه معرفة القاتل فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧].

فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنَّهم شدّدوا فشُدِّد عليهم.

ثم قالوا لموسى عليه السلام: نسألك عن القتيل، وعمن قتله، وتقول: اذبحوا بقرة، أتهزأ بنا؟!

قال: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧].

فلمّا تيقنوا أنه لا يهزأ بهم: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾؟ [البقرة: ٨٦].

فقال لهم: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٨٦].

ليست بالهرمة التي لا تلد، ولا بالبكر التي لم تلد إلا واحداً، ولكن هي عوان، وهي التي ولدت وولد ولدها ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قالوا له: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

وهي البقرة الصفراء نقية اللون التي تجذب الناظرين إليها.

قالوا له: ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

فقال لهم موسى: ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾.

أي أنها مكرمة حسنة لا عيب فيها، وليس فيها بياض ولا سواد وإنما لونها هو الأصفر.

قالوا: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فطلبوها منه، وسألوه أن يبيعهم إيّاها ببقرة أخرى، فأبىٰ.

فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك.

فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام.

فقالوا: يا نبي الله، إنّا وجدناها عند هذا، فأبىٰ أن يعطينا إيّاها، وقد أعطيناه ثمنها.

فقال له موسى عليه السلام: أعطهم بقرتك.

فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالي.

فقال موسى عليه السلام: صدقت.

ثم قال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهباً.

فباعهم إياها وأخذ ثمنها.

فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿ ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾.

فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين.

فقام الرجل، وأفاق من موته بإذن الله.

فسألوه: مَن قتلك؟

قال لهم: قتلني ابن أخي هذا، وأشار إليه.

ثم عاد ميتاً، فلم يُعط ابن أخيه من ماله شيئاً، ولم يورث قاتل بعده.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣][1].

قارون وموسى عليه السلام:

لقد ابتُلي موسى عليه السلام في حياته ومشوار دعوته بمجموعة من الصناديد.

ابتلي أولاً بفرعون الذي زعم أنه إله واستعبد الناس، ثم ابتلي ثانياً بموسى السامري الذي صنع العجل ودعا بني إسرائيل لعبادته.

ثم ابتلي ثالثاً بقارون، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦].

وقارون رجل من بني إسرائيل أتاه الله بسطة في الرزق حتى إن مفاتيح خزائنه كانت تنوء بالعصبة أولي القوة.

ولمَّا أمر الله تعالى بالزكاة، كان على قارون من كل ألف دينار، دينار، فلمّا عاد إلى بيته وجده كثيراً، فجمع نفراً يثق بهم من بني إسرائيل، فقال لهم: إن موسى أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن

يريد أخذ أموالكم.

فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت.

فقال: آمركم أن تحضروا فلانة البغي، وتتهم موسى بأنه زنىٰ بها. ففعلوا ذلك، فأجابتهم إليه.

ثم أتى قارون إلى موسى عليه السلام وقال له: إنّ قومك قد اجتمعوا لك لتأمرهم وتنهاهم.

فخرج إليهم فقال: من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى الموت.

فقال له قارون: وإن كنت أنت يا موسى؟

فقال نعم.

قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنّك فجرت بفلانة.

فقال: ادعها، فإن قالت؛ فهو كما قالت.

فلمَّا جاءت قال لها موسى عليه السلام: أقسمت عليك بالذي أنزل التوراة إلا صدقتِ، أنا فعلت بك ما يقوله هؤلاء؟

قالت: لا، فقد كذبوا ولكن طلبوا مني أن أقذفك. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥].

فسجد موسى عليه السلام فأوحى الله إليه: «**مر الأرض بما شئت تطعك**».

قال: يا أرض، خذيهم.

فلم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره، خسف الله به الأرض هو وحاشيته.

ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال، وخراب الديار ندم من كان تمنى مثل ما أُوتي قارون، ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٨٢].

وهكذا رد الله كيد الكافر في نحره، وأذاقه وبال أمره، وظهرت براءة موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١][1].

موسى والخضر عليهما السلام:

قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، فلمّا انتهى من خطبته سأله رجل: هل تعلم أحداً أعلم منك يا نبي الله؟

قال: لا، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين على الساحل عند صخرة هناك هو أعلم منك.

فقال موسى لربه: فكيف لي به؟

قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت تجده هناك، فأخذ موسى حوتاً في مكتل، واصطحب فتاه يوشع بن نون.

---

(١) «قصص الأنبياء»، الشعراوي. (بتصرف).

وقال له: إذا فقدت الحوت فأخبرني.

ثم انطلق موسى عليه السلام وانطلق معه فتاه حتى وصلا إلى الصخرة وغشاهما النعاس، فناما، ومس الحوت بعض الماء فاضطرب في المكتل، وأخذ سبيله في البحر سربا.

فرآه يوشع وهو بين النوم واليقظة.

فلمّا استيقظ موسى نسي أن يسأل يوشع عن أمر الحوت، ونسي يوشع أن يخبره بما حدث.

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغداة وقد أجهدهم السير، قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢].

ولمّا همَّ يوشع لإعداد الطعام تذكَّر الحوت الذي تسرب إلى البحر، فقال لموسى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف: ٦٣].

فقال موسى: إن فقدان الحوت هو ما كنا نبغيه؛ لأنه أمارة على نيل ما نطلبه.

فرجعا حتى أتيا الصخرة، فوجدا العبد الصالح.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

قال موسى عليه السلام للعبد الصالح: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦].

قال له العبد الصالح: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا

لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨].

ولمَّا أصرَّ موسى عليه السلام على المصاحبة، اشترط عليه العبد الصالح ألا يسأله عن شيء مما سيراه.

انطلق موسى عليه السلام والخضر يمشيان على ساحر البحر، فمرَّت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم.

فلمّا ركب في السفينة قلع الخضر لوحاً من ألواح السفينة فقال له موسى عليه السلام: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١].

فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله.

فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف: ٧٤].

قال الخضر لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٥].

انطلق موسى مع الخضر حتى دخلا قرية، فطلبا من أهل القرية طعاماً.

فقالوا لهما: لا، لن نعطيكما. لقد كانوا لئاماً.

ولما رأى العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض فأقامه.

فقال له موسى عليه السلام متسائلاً: لماذا لا تأخذ منهم أجراً وأنهم منعونا الطعام؟

هنا وقف الخضر وقال لموسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٨].

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩].

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٨٠].

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

* * *